

السلطان عبد الحميد الثاني والعرب:  
الجامعة الإسلامية وأثرها في احتواء القومية العربية

عبد الرؤوف سنو  
أستاذ في الجامعة اللبنانية

عندما اعتلى السلطان عبد الحميد الثاني العرش في عام 1876، كانت الدولة العثمانية قد تعرضت إلى شتى أنواع الاختراقات من قبل الدول الأوروبية الرئيسية. فتمكنت هذه الدول، بفضل "الامتيازات" التي حصلت عليها من السلطنة، من أن تحقق لنفسها وضعاً مميزاً داخل الدولة، والتدخل في شؤونها الداخلية. وتحت ستار الدين الذي جمعها بـ "أهل الذمة"، جرى اختراق نظام الملة العثماني والتسبب في تفكيك التماسك ضمن الفسيفساء الاجتماعية والدينية والعرقية التي تكون منها المجتمع. كما تدهورت قطاعات الإنتاج التقليدية لصالح "الجيوب" الاقتصادية الأجنبية وفرض الرأسمال الغربي هيمنته على البلاد. وبفضل "التنظيمات" (1839 - 1876)، التي فُصد منها خلق مواطنة عثمانية جديدة، حدث شرخ آخر في بنية المجتمع العثماني.

وعلى الصعيد العسكري، تمكنت الدول الكبرى من الاستيلاء على ممتلكات السلطنة تباعاً، لتقتصر هذه بعد عام 1878 على مقدونيا وألبانيا والرومللي (= حتى عام 1885) في أوروبا،<sup>1</sup> وعلى تركيا الآسيوية وبلاد ما بين النهرين وبلاد الشام وطرابلس في شمال إفريقيا ودواخل الجزيرة العربية بعد عام 1882. ووسط هذا، كانت فرنسا تتهيأ للانقضاض على المغرب الأقصى، فيما تتطلع إيطاليا للإستيلاء على طرابلس (= ليبيا). وإلى جانب احتلالها لمصر في عام 1882، وفرض هيمنتها على الخليج العربي منذ عام 1798، كانت بريطانيا تلعب على التناقضات العربية - العثمانية وتروج لخلافة عربية منافسة للعثمانيين.

لقد طرحت المسائل التي ذكرتها تساؤلات كثيرة في العالم الإسلامي حول شرعية السلطة العثمانية، التي لا تتوسع على حساب "دار الحرب" فحسب، بل لا تؤدي واجبها في الدفاع عن "دار الإسلام". وبمعنى آخر، حول شرعية السلطان العثماني في ادعاء الخلافة، فيما قلاع الإسلام تستباح من قبل دول الاستعمار.<sup>2</sup>

<sup>1</sup> بموجب معاهدة برلين عام 1878، اعتبرت بلغاريا مستقلة ذاتياً، فيما وضعت البوسنة والهرسك في عهد النمسا/هنغاريا.

<sup>2</sup> أنظر حول هذه المسألة: Gabriel Charmes, L'Avenir de la Turquie. Le Panislamisme, Paris 1883, p. 179f.

## 1- السياسة الإسلامية للسلطان عبد الحميد الثاني: أسبابها وأبعادها

أدى تراجع الدولة العثمانية أمام أوروبا المسيحية إلى بدء التحول التدريجي لفكرة الجامعة الإسلامية، من مجرد وحدة المشاعر والتفكير بين المسلمين إلى "يقظة" و"تيار تجديدي" يقومان على تفعيل مفاهيم الأمة عند المسلمين وإصلاح مجتمعاتهم وتقويتها لمواجهة الغرب وتهديداته وتحريك البلدان الإسلامية من الاحتلال الأجنبي.<sup>3</sup> من هنا، كان للجامعة الإسلامية اتجاهين اثنين: **فكري**، ويقوم على مجموعة من المبادئ التي أتت بها الحركات الإصلاحية السلفية وعدد من المفكرين المسلمين،<sup>4</sup> الذين طالبوا بإصلاح المجتمع الإسلامي وتقويته وتحديثه سواء بالعودة إلى الشريعة والقيم الإسلامية وإلى سُنَّة السلف الصالح، أم بالاجتهاد وتطبيق الشورى، أم بالاقتراب عن الفكر الغربي. واتجاه **سياسي**، برز بقيادة السلطان عبد الحميد الثاني جراء الأحداث الداخلية والخارجية التي عصفت بدولته منذ تسلمه السلطة.

عند وصوله إلى العرش، كانت "الامتيازات"، التي حصلت عليها الدول الأجنبية من الدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر، قد نهشت مواقع مسلمي السلطنة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية لمصلحة مسيحيي الداخل والأجانب،<sup>5</sup> فيما وجهت "التنظيمات" ضربة قاصمة للتعايش القديم بين المسلمين و"أهل الذمة"، وما يُسمى بسيادة الأمة الإسلامية.<sup>6</sup> فضلاً عن ذلك، بدأت حركات انفصالية إسلامية عن السلطنة تطل برأسها في بلاد الشام والعراق والبلقان ذات طابع "قومي" أو احترازي، نتيجة هجوم الاستعمار، منذرة بتحول السلطنة إلى دولة تقتصر على العنصر التركي في تركيا الآسيوية.<sup>7</sup>

وقد طرحت هذه التطورات إشكاليات صعبة أمام السلطان عبد الحميد الثاني عقب تسلمه السلطة: كيف يمكنه أن يمسك بشعوبه الإسلامية في آسيا الصغرى (= العربية) وشرقي البلقان (ألبانيا) ويبقيها خاضعة لسلطانه، فيما تدفعهم الاتجاهات القومية والتحريرية للانفصال عن الدولة؟ وإذا ما انفصلت بلاد الشام وألبانيا عن السلطنة، فماذا يبقى من السلطنة العثمانية؟ ولماذا عليه أن يسير في سياسة علمانية، كما تريد أوروبا، فيما تحولت السلطنة منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر إلى دولة ذات أكثرية إسلامية؟<sup>8</sup>

<sup>3</sup> O. Depont/Talayrach d'Erkhardt, "Pan –Islamisme et propagande islamique", in: *Revue de Paris*, 22, 15.11.1899, p. 231; Dwight E. Lee, "The Origins of Pan-Islamism", in: *American Historical Review*, (1942), p. 286.

<sup>4</sup> أبرزهم جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، وعبد الحميد الزهراوي، وخير الدين التونسي، وأمير علي وسيد أحمد خان. في الهند.

<sup>5</sup> أنظر في هذا الخصوص الدراسة الموسعة ل: عبد الرؤوف سنو، "تطور الاتجاهات الإسلامية في الدولة العثمانية. من التنظيمات حتى نهاية عصر السلطان عبد الحميد الثاني"، في: *المنهاج* (بيروت)، حلقة أولى، 4 (1996)، ص 108 – 149.

<sup>6</sup> بفضل الامتيازات، أضحى المسيحيون في السلطنة "أقلية" محمية أجنبياً. وبفضل التنظيمات، التي أكدت على استمرار تمتعهم بمكاسب الامتيازات، أصبح المسيحيون متساوين مع المسلمين في السلطنة، وهو ما اعتبره المسلمون تفوقاً مسيحياً صارخاً عليهم مدعوماً من قبل أوروبا المسيحية. فتسبب ذلك في تخويف المسلمين من أن يتم إضعافهم اجتماعياً وسياسياً من خلال التنظيمات، بعدما تم سحقهم اقتصادياً من جراء الامتيازات. حول هذا الموضوع، أنظر: عبد الرؤوف سنو، تطور الاتجاهات الإسلامية في الدولة العثمانية، حلقة 1، مرجع سبق ذكره.

<sup>7</sup> راجع في هذا الخصوص كتابنا: النزاعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية 1881 - 1977 (بلاد الشام، الحجاز، كردستان، ألبانيا)، بيروت 1998.

<sup>8</sup> Francois Georgeon, "Le denier suraut (1878 – 1908)", in: Robert Mantran (Ed.), *Histoire de l'Empire Ottoman*, Paris 1989, p. 533.

وفي ضوء هذه الإشكاليات، رأى السلطان أن يستجيب إلى التحولات الجديدة داخل المجتمع العثماني، ويخرج عن نهج أسلافه التقليدي في الحكم، الذي قام على ضمان سلامة السلطنة وسيادتها وإسكانها بمجتمعها من خلال الاعتماد على القوى الأوروبية أو التسوية معها،<sup>9</sup> أو تحديث الدولة وإصلاحها من خلال علمنة "مستوردة" بعيدة عن الإسلام والتقاليد العثمانية. وأعتقد السلطان أن استبدال بمشاعر القومية روابط الجامعة الإسلامية وما تفرضه هذه الأخيرة من خضوع مسلمي السلطنة لسلطتهم السياسية - الروحية والتضامن في ما بينهم، بغض النظر عن العرق، يؤدي إلى التماسك المجتمعي الإسلامي والحفاظ على سيادة السلطنة على أراضيها وشعوبها ومواجهة الأخطار المحدقة الآتية من الخارج. أي بمعنى آخر، إعطاء السلطنة جرعة جديدة من الحياة. من هنا، استطاع السلطان عبد الحميد الثاني أن يصوغ للمرة الأولى في تاريخ السلطنة أيديولوجية الجامعة الإسلامية "السياسية"، التي ترفع من مقام السلطان إلى مرتبة "خليفة المسلمين" لدى شعوبه الإسلامية وتجاه الخارج، وتجعل من الإسلام والتقاليد الإسلامية نهجاً ومنهجاً في السياستين الداخلية والخارجية.

هكذا، تحولت مسألة إعادة تركيب المجتمع العثماني الإسلامي ودمجه بالدولة على أسس حضارية واجتماعية واقتصادية إسلامية ومواجهة هجوم الاستعمار وتيارات القومية بمفهوم الأمة الإسلامية، إلى برنامج إصلاحي سياسي في عصر السلطان عبد الحميد الثاني. بيد أن السلطان أدرك أن ظروف دولته وأوضاع البلدان الإسلامية الراضحة تحت نير الاستعمار لا تسمح له إدعاء زعامة دنيوية على المسلمين خارج حدود السلطنة. ولهذا، كانت الجامعة الإسلامية بالنسبة إليه أولاً وأخيراً ذات بُعد داخلي.<sup>10</sup>

وبسبب عدم وجود منافسين حقيقيين للعثمانيين على منصب الخلافة، بدأ السلطان عبد الحميد الثاني يعمل على تشكيل مشروع الخلافة "عثمانياً"، من خلال الجمع بين السلطتين الزمنية والروحية، وبدأت تُطرح مقولة "السلطان - الخليفة" على رعايا السلطنة في الداخل، وبنص دستوري منذ عام 1876،<sup>11</sup> وفي التعامل مع القوى الأوروبية والمسيحيين المحميين من رعايا الدولة العثمانية، بعدما أسقطت أجهزة السلطان الإعلامية - الدينية النسب القرشي كشرط

وذكر Engin D. Akarli, "Abdülhamid II's Attempt to Integrate Arabs into the Ottoman System", in: David Kushner (ed.), *Palestine in the Late Ottoman Period*, Jerusalem 1986, no. 18, p. 87. أن الأتراك شكلوا غالبية سكان السلطنة بنسبة 35%، والعرب بنسبة 30% والأكراد بنسبة 6.6%، فيما حل الألبانيون في المرتبة الرابعة بنسبة 5.8%. وهذه النسبة جعلت نسبة المسلمين في السلطنة تفوق 77%، فيما تقل نسبة المسيحيين عن 23%.

<sup>9</sup> *The Times* 19.1.1882, p. 8; Winfrid Seawen Blunt, *The Future of Islam*, London 1882, pp. 92-93; Kidwai, "The Fate of the Muslim Empire", in: *Islamic Review* (Lahore), 7, 9(1919), p. 316.

كما حدث في معاهدة باريس وملحقها، عندما ضمنت الدولة الأوروبية سلامة السلطنة وتعهدت بالامتناع عن التدخل في شؤونها. وفي مؤتمر برلين عام 1878، ساهم التدخل الأوروبي في إنقاذ السلطنة من مخططات روسيا. أنظر: عبد الرؤوف سنو، "السياسة والإيديولوجيا في روسيا بمواجهة الدولة العثمانية. توظيف الجامعتين الأرثوذكسية والسلافية في تفكيك السلطنة"، في: *روسيا وأرثوذكس الشرق*، جامعة البلمند، ص 233-285.

<sup>10</sup> Kemal H. Karpat, "Pan-Islamizm ve ikinci Abdulhamid: Yanlis bir görüsün düzeltilmesim" in: *Türk Dunyasi Arastimlari* (Istanbul), 48 (1987), pp.28, 32-33.

<sup>11</sup> المادتان 3 و4 من الدستور العثماني لعام 1876، حيث اعتبر السلطان "الخليفة الأكبر". راجع: Anqus Hamilton, *Problems of the Middle East*, London 1909, App. I, p. 367.

للاستخلاف،<sup>12</sup> وقوت في الوقت نفسه من ادعاءات السلطان بمنصب الخلافة "لحمائته" الأماكن المقدسة للإسلام في مكة والمدينة، وبخادميته للحرمين الشريفين والسهر على تأمين سلامة طرق الحج.<sup>13</sup>

بعد هذه المقدمة، أقدم الفرضيات التالية: إن نمو مشاعر القومية عند مسلمي السلطنة، وبخاصة لدى العرب، عجل في استخدام السلطان العثماني للجامعة الإسلامية أداةً لكبح الاتجاهات القومية وإعادة دمج العرب بالسلطنة على أساس روابط الإسلام، وتقريب شخصيات عربية إليه من أعيان ومتصوفين ومشايخ وعلماء، فضلاً عن تحسين نواحي الإدارة والتعليم والبنية التحتية في الولايات العربية. كما أفترض أن سياسة الجامعة الإسلامية للسلطان، وبسبب تجزر الإسلام لدى شعوب السلطنة والاختراقات الأجنبية وتفوق مسيحي الداخل على مواطنيهم المسلمين بفضل مبادراتهم الشخصية ودعم أوروبا لهم، حققت نجاحاً لدى العرب المسلمين، بدليل عدم حدوث أية محاولة عربية للانفصال عن السلطنة أثناء عهد عبد الحميد الثاني.

## 2- أسباب تقرب السلطان عبد الحميد الثاني إلى العرب وغاياته

أولى السلطان عبد الحميد الثاني العرب اهتماماً خاصاً ضمن برنامج الجامعة الإسلامية، وذلك لسببين: أولهما، خشيته من استغلالهم ضعف الدولة ونفقتهم عليها للانفصال عنها بتحريض خارجي وإنشاء خلافة عربية منافسة للعثمانيين استناداً إلى قرشيتها.<sup>14</sup> وكانت مخاوف السلطان متجهة أساساً نحو نشاطات أشراف مكة المشبوهة بُعيد الحرب الروسية - العثمانية عامي 1877 - 1878 للانفصال عن السلطنة بدعم بريطاني وإنشاء خلافة عربية في الحجاز، والتي تزامنت مع مساعي "جمعية بيروت السرية" وحركة أعيان المسلمين ويوسف كرم والوالي مدحت باشا للاستقلال في بلاد الشام.<sup>15</sup> كما شكل طرح إمام اليمن نفسه خليفة ومخططاته الاستقلالية بدعم بريطاني - فرنسي،<sup>16</sup> وتحركات خديوي مصر عباس حلمي الثاني للترويج لخلافة "مصرية"

<sup>12</sup> أنظر في هذا الخصوص كتابات أبو الهدى الصيادي، شيخ الطريقة الرفاعية، وأحد أكثر العرب المقربين إلى السلطان عبد الحميد الثاني، وبخاصة كتابه: داعي الرشاد لسبيل الاتحاد والانقياد، الأستانة، لات، (حوالي 1880م)، وهو باللغة العثمانية، وفيه يستبعد الصيادي النسب القرشي كشرط للاستخلاف. وقارن بـ:

B. Abu- Manneh, "Sultan Abdulhamid II and Shaikh Abulhuda Al- Sayyadi", in: *Middle Eastern Studies* 15, 2 (1979), pp. 140-142.

<sup>13</sup> Blunt, op. cited., pp. 100 -101; J.W. Redhouse, A Vindication of the Ottoman Sultan's Title of <Caliph>, London 1877, p. 7.

<sup>14</sup> G. Charmes, "La situation de la Turquie, la politique du Califat et ses consequences", in: *Revue des deux Mondes*, 47 (1881) p.745.

<sup>15</sup> حول مساعي الاستقلال في بلاد الشام، أنظر: عبد الرؤوف سنو، النزاعات الكيانية الإسلامية في السلطنة العثمانية، مرجع سبق ذكره.

<sup>16</sup> PAAA, OG 9,1, Bd.3 , Oppenheim an Hohenlohe –Schillingsfürst, Nr. 55, A 8664, Alexandrien 15.7.1898; Bd. 9, Oppenheim an Bülow, Nr. 300, A 11277, Cairo 18.6.1906.

وإقامة دولة إسلامية<sup>17</sup> والتوسع الوهابي في الجزيرة العربية، وأخيراً، دعوة المفكر عبد الرحمن الكواكبي في كتابه "أم القرى" لإعادة "تعريب" الخلافة الإسلامية، ونجيب عازوري في مؤلفه "يقظة الأمة العربية في تركيا الآسيوية" لخلافة عربية في الحجاز ودولة عربية غير دينية في المشرق (بلاد الشام والعراق)<sup>18</sup>، شكلت كل هذه المسائل تهديداً خطيراً لمركز عبد الحميد الثاني كسلطان - خليفة، ولتماسك السلطنة.<sup>19</sup> أما السبب الثاني لاهتمام السلطان بالعرب، فكان اقتصادياً. فبعد خسارة السلطنة معظم ولاياتها الغنية في آسيا وأوروبا، انصب اهتمامها على ولايات سوريا وحلب وأضنه وعلى رفع مستوى ازدهارها وثرواتها لتكون بديلاً اقتصادياً من الولايات التي خسرتها.<sup>20</sup>

وفي إطار سياسته العربية لكبح الاتجاهات القومية العربية، عمل عبد الحميد الثاني على تقطيع أوصالها بلاد الشام من الناحية الإدارية، بعدما كان إنشاء ولاية سوريا في عام 1864 قد نَمَى "شخصية عربية سورية". ولهذا قام السلطان عامي 1887 و 1888 بتحجيم ولاية سوريا إلى شريط من الأرض يمتد من حماه في الشمال حتى معان في الجنوب، وذلك من خلال إنشاء "متصرفية القدس" و"ولاية بيروت".<sup>21</sup> ولكي يسهل عليه مراقبة الأحداث في البلاد العربية، رفع السلطان مستوى الولايات العربية وجعلها من الدرجة الأولى، ومنها والحجاز، واختار ولايتها من كبار الموظفين وأكفأهم، ومنهم في ولاية سوريا: أحمد حمدي باشا (1880 - 1885)، وحسين ناظم باشا (1897 - 1906)، ورؤوف بك وتوفيق بك متصرفي القدس (1877 - 1889) و(1897 - 1901).<sup>22</sup> وفي ولاية بغداد اشتهر حسن باشا (1891 - 1896)، ونامق باشا الصغير (1899 - 1902)، وحسين ناظم باشا الثاني (1910 - 1911).<sup>23</sup>

### 3- السلطان عبد الحميد واستقطاب الشخصيات العربية

عمل السلطان عبد الحميد الثاني، في إطار سياسته الإسلامية، على أن يتوَدَّد إلى العرب عن طريق ضم شخصيات عربية دينية ومدنية ومن الأعيان إلى حاشيته، أو تعيينهم في مراكز

<sup>17</sup> كان السلطان عبد الحميد الثاني يتلقى باستمرار التقارير حول مبايعة بعض المسلمين للخديوي عباس حامي الثاني بالخلافة. وجرى الحديث عن تحركات عملاء الخديوي في بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية للترويج لخلافة عربية أنظر: مجلة *العنار*، مجلد 4، ج16، سنة 1901، ص 637-

F.O. 78/4864, Cromer to Salisbury, secret, no. 132, Cairo 12.10.1897؛ 639  
F.O. 78/5057, O'Connor to Salisbury, secret, no. 50, Constantinople 14.2.1900

<sup>18</sup> Nagib Azoury, *Le reveil de la nation Arabe*, Paris 1905.

<sup>19</sup> PAAA, OG 9,1, Bd. 7, Oppenheim an Bülow, Nr. 224, A 6392, Cairo 1.4.1904; David Dean Commins, *Islamic Reform. Politics and Social Change in Late Ottoman Syria*, New York/Oxford 1990, pp. 304-305.

<sup>20</sup> عصر السلطان عبد الحميد وأثره في الأقطار العربية 1876 - 1909، ج4، ص 437 و Akarli, *Abdülhamid II's Attempt*, op. cit., p. 75.

<sup>21</sup> Abu - Manneh, "Sultan Abdulhamid II and Shaikh Abulhuda Al-Sayyadi", op. cit., pp. 144-146.

<sup>22</sup> Max L. Gross, *Ottoman Rule in the Province of Damascus 1860 - 1909*, Ph.D. Diss. Georgetown University 1979, vol I, pp. 205-206.

<sup>23</sup> جميل موسى النجار، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد. من عهد الوالي مدحت باشا إلى نهاية الحكم العثماني 1869 - 1917، القاهرة 1991، ص 187، 472 - 473.

الدولة العليا وفي الولايات، أو استمالتهم بالهدايا والامتيازات. وبسبب نمو الطرق الصوفية في عصره، قرّب عبد الحميد إليه، ولأهداف سياسية، شيوخاً صوفيين عربياً، إدراكاً منه لأهمية هؤلاء في التأثير الجماهيري والترويج لمقولة "السلطان – الخليفة". والمعروف، أن السلطان عبد الحميد انتمى إلى الطريقة الشاذلية اليشرطية ومن مريدي الشيخ محمود أبي الشامات، شيخ الطريقة اليشرطية في دمشق.<sup>24</sup> وتذكر إحدى الوثائق البريطانية عن وجود "مجلس سري عربي" في قصر السلطان خلال الثمانينات لعب دور حلقة الاتصال بين السلطان وقيادات إفريقية.<sup>25</sup>

يعتبر الشيخ أبو الهدى الصيّادي والشيخ ظافر المدني والشيخ فضل العلوي من أعظم الشخصيات الدينية العربية التي لعبت دوراً في زمن السلطان عبد الحميد. وكان الاثنان الأولان ممن يعتمد الطريقة الصوفية. فكان الصيّادي الحلبي، شيخ الطريقة الرفاعية في سوريا ومن ألمع الشخصيات العربية لدى السلطان العثماني. وقد استلم الدعاية للجامعة الإسلامية وقوى من سمعة الخليفة في البلاد العربية.<sup>26</sup> كما كان حلقة الاتصال مع شيوخ سوريا والجزيرة العربية. اشتهر بكثرة دسائسه، ولعب دوراً في تردي علاقات عبد الحميد بعباس حلمي الثاني، خديوي مصر.<sup>27</sup> ومن خلال مؤلفاته ورسائله (212 مؤلفاً ورسالة) أبرزها "داعي الرشاد لسبيل الاتحاد والانقياد"، دافع الصيادي عن حكم السلطان، مؤكداً صحة خلافته وشرعيتها، ودعا المسلمين والعرب بخاصة إلى طاعته بوصفه خليفة.<sup>28</sup>

أما الشيخ الصوفي العربي الثاني الذي برز في عهد السلطان عبد الحميد، فكان محمد ظافر المدني من مصراته بليبيا، وهو شيخ الطريقة المدنية المتفرعة عن الشاذلية. وكان الشيخ ظافر مسؤولاً عن الدعاية الإسلامية في شمال إفريقيا والترويج لمقولة "السلطان – الخليفة". استخدمه السلطان لمناهضة نفوذ فرنسا في المنطقة.<sup>29</sup> كما كان الشيخ ظافر وسيلة الاتصال بين السلطان عبد الحميد وشيخ الطريقة السنوسية في "ليبيا" محمد المهدي السنوسي لتنسيق المقاومة التوسع الأجنبي في وسط إفريقيا.<sup>30</sup> أما الشيخ فضل العلوي من ظفار، فكان الشخصية الدينية الثالثة حول السلطان، من دون أن يكون صوفياً. وبعد تعيين عبد المطلب في منصب شريف مكة عام 1880، عينه السلطان مساعداً للشريف المذكور ليكون مسؤولاً عن الدعاية الدينية - السياسية في الجزيرة العربية ولكسر تحالفات البدو في الجزيرة العربية مع الإنكليز.<sup>31</sup>

<sup>24</sup> عبد الكريم رافق، تاريخ الجامعة السورية. البداية والنمو 1901 – 1946، دمشق 2004، ص 10-11.

<sup>25</sup> F.O. 78/4201, White to Salisbury, secret, no. 49, Constantinople 3.2.1889; White to Salisbury, very secret, no. 47, Constantinople 1.2.1889.

<sup>26</sup> PAAA, OG 9,1, Bd. 4, Oppenheim an Bülow, Nr. 114, A 9213, Kairo 8.6.1901.

<sup>27</sup> PAAA, OG 9,1, Bd. 3, Oppenheim an Bülow, Nr. 52, A 8661, Cairo 5.7.1898.

<sup>28</sup> أنظر دراسة: Abu – Manneh, op. cit., p. 140.

<sup>29</sup> Ercment Kuran, "Panislamizm'in dogusu ve gelismesi", in: *Türk Tarihi* (Istanbul), 1(1985),

p.398; C.E.B., "Notes sur le Panislamisme", in: *Questions diplomatiques et coloniales*, 28

(1909), pp. 644-645.

<sup>30</sup> Michel le Gall, "Pan-Islamism and the Brotherhoods during the Reign of Abdulhamid II: Notes

on Ottoman – Sanusi Relations", in: *Actes de VI congrés du C.J.E.P.O. tenu à Cambridge sur:*

*Les provinces Arabes e l'èpoque Ottomane*. Etudes reunites et présentées par Abduljelil

Temimi, Zaghouan 1987, pp. 135ff.

<sup>31</sup> F.O. 78/4414, Ford to Salisbury, secret, no. 156, Constantinople 9.5.1892; Depont/Eckardt,

Panislamisme, op. cit., p. 235; ويؤكد Charmes, la situation, p. 743، أن الشيخ فضل كان عميلاً سابقاً

للإنكليز في الهند، لكنه ختلف معهم وعمل لصالح السلطان عبد الحميد وأخلص له.

ويُعدّ أحمد عزت العابد أهم شخصية مدنية سياسية عربية حول عبد الحميد الثاني. برز بعد أفول نجم الصيّادي عام 1895، ولعب دوراً بارزاً في التحريض ضد الأرمن عام 1895،<sup>32</sup> وفي أحداث كربيت عام 1897، وكان وراء إنشاء خط حديد الحجاز.<sup>33</sup> وقد تمكن العابد من إيصال العديد من أفراد عائلته إلى مناصب رفيعة في الدولة، وجنى ثروة ضخمة من وراء صفقاته.<sup>34</sup> ومن الشخصيات المدنية السورية الأخرى التي قربها السلطان عبد الحميد إليه صادق باشا العظم. فكان معاوناً للسلطان، الذي كلفه بمهمة الإشراف على إنشاء خط التلغراف بين دمشق ومكة المكرمة.<sup>35</sup>

وإلى جانب هذه الشخصيات الرئيسية الأربع، قرّب السلطان عبد الحميد إليه عدداً كبيراً من المشايخ والعلماء، منهم (الشيخ) أحمد أسعد من المدينة بسبب نفوذه بين القبائل البدوية، والشيخ سعيد من حمص، والشيخ الشاعر يوسف بن إسماعيل النّبھاني من فلسطين، الذي عينه قاضياً في المحاكم المدنية والدينية في سوريا، والشيخ صالح المنير من دمشق، والشيخ حسين الجسر من طرابلس، الذي امتدح السلطان في كتابه "الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقيقة الشريعة المحمدية".<sup>36</sup>

وبالإضافة إلى الشخصيات التي أتينا على ذكرها، قرّب السلطان عبد الحميد إليه عشرات العرب من الأشراف ورؤساء العشائر البدوية. لقد أدرك أن هذه القوى لناحية القوة والنفوذ الاجتماعيين لا تقل عن جماعات الصوفية التي كان يستخدمها. فانفتح على أسر الأعيان بشرائحتها الاجتماعية والدينية المختلفة كآل العظم والعابد والمؤيد والشمعة واليوسف والقوتلي والبارودي ومردم في سوريا، والحسيني والنشاشيبي والعلمي والخالدي والشرفة في فلسطين.<sup>37</sup> فاتبع في ما بينها سياسة توازن، بعدما أفسح لها مجال الانخراط في النظام من خلال الظهور في مجالس الولاية والمتصرفية. والبلدية أو القضاء، أو بالحصول على امتيازات لتنفيذ مشاريع.

وقد وصل بعض هؤلاء، ومنهم بعض المسيحيين، إلى رتبة الوزارة، كمحمد فوزي العظم وزير الأوقاف ثم مدير الأشغال في خط حديد الحجاز، وسليم باشا ملحمة وزير الإحراج والمعادن وشقيقه نجيب ملحمة مدير «البوليس السري»، وشفيق الكوراني مدير الشرطة، ومحمد شوكت باشا قائد الجيش الثالث في سالونيك، والفريقان محمد باشا ومحي الدين باشا ولدا الأمير عبد القادر

<sup>32</sup> يعزو المستشرق الهنغاري أمينيوس فامبري (Aminius Vambéry)، الذي كان جاسوساً لبريطانيا في قصر السلطان عبد الحميد الثاني، المذابح الأرمنية إلى تحريض عزب العابد. F.O. 800/33, Vambéry to F.O., Budapest. 12.5.1901, 230-237.

<sup>33</sup> Engin D. Akarli, "Abdülhamid's Islamic Policy in the Arab Provinces" in: *Proceedings of the Arab-Turkish Relations Conference*, June 18-22 1979, publ. as <Turkish – Arab Relations>, Ankara 1979, pp. 52f.

A.L. Tibawi, *A Modern History of Syria*, London 1969, p. 183.

<sup>34</sup> Philip S. Khoury, *Urban Notables and Arab Nationalism. The Politics of Damascus 1860 - 1920*, Cambridge ect. 1983, pp. 39, 116f.

<sup>35</sup> عبد الكريم رافق، تاريخ الجامعة السورية، ص 4.

<sup>36</sup> ظهرت الطبعة في عام 1881. قدم لها وحققها خالد زيادة، طرابلس، لات.

<sup>37</sup> حول علاقة السلطان عبد الحميد بالأعيان في سوريا، أنظر: Khoury, *Notables*, op. cit. وحول الأعيان والأشراف في فلسطين، أنظر: Haim Gerber, *Ottoman Rule in Jerusalem 1890 – 1914*, Berlin 1985. أما في شأن علاقته بأشراف الحجاز، راجع: Akarli, *Abdülhamid's Islamic Policy*, op. cit. pp. 52-54.

الجزائري، وكانا ياورايّ السلطان، وأركان حرب شفيق باشا وشقيقه وهيب باشا من قرية المتين اللبنانية، والسوري شكري باشا الأيوبي ناظر الأعمال العسكرية، والأميرلاي يوسف الرامي من فالوغا، والدكتور الياس مطر من بيروت وسليم باز من دير القمر.<sup>38</sup> ومن رجال الصحافة قرّب إليه أحمد فارس الشدياق صاحب مجلة "الجوائب"، وإبراهيم المويلحي الذي تحول بعد عام 1886 إلى مؤيد للسلطان وداعية له، ولويس صابونجي الذي تحول بدوره بعد عام 1890 إلى مؤيد لسياسة عبد الحميد.<sup>39</sup> وفي حدود عام 1886، كان هناك 3200 ضابط عربي في الجيش العثماني، بالإضافة إلى حرس السلطان الخاص من التونسيين.<sup>40</sup> وبعد نجاح إنشاء "الأفواج الحميدية" في عام 1890 من الأكراد من أجل التصدي لانتفاضات الأرمن، وُضعت هذه تحت القيادة المباشرة لزعماء العشائر الكردية. وفي حدود عام 1900، كان 72 فوجاً من هذه القوى العسكرية تحت السلاح، منها ثلاثة أفواج من العرب.<sup>41</sup> كما عمد السلطان في نهاية القرن التاسع عشر إلى إنشاء وحدات عسكرية من الطرابلسيين (= ليبيا)، سميت أيضاً "الأفواج الحميدية".<sup>42</sup>

ولما كان السلطان عبد الحميد الثاني يدرك أن استخدام الجامعة الإسلامية قوة لدمج العرب في السلطنة، لا بد أن يصاحبه تحسين في الوضع القضائي وفي التعليم والإدارة والبنية التحتية. وقد تناولنا في صفحات سابقة التقسيمات الجديدة التي طرأت على الإدارة في بلاد الشام في عصر عبد الحميد وأهداف السلطان من وراء ذلك. وسوف نتطرق الآن إلى السياسة العثمانية لتحسين القضاء والتعليم والبنية التحتية.

#### 4- تحسين الخدمات الاجتماعية والقضاء والتعليم

على خطٍ موازٍ للتقسيمات الإدارية الجديدة في بلاد الشام، أولى السلطان عبد الحميد اهتماماً للمجالس الإدارية، وهي مجالس اختيارية القرى ومجالس إدارة النواحي ومجالس الأفضية والألوية والولاية.<sup>43</sup> وقد عرفت ولاية بغداد عدداً من المجالس لإدارة النواحي قبل نهاية القرن التاسع عشر.<sup>44</sup> كما أولى السلطان اهتماماً بنشر البلديات في المدن السورية والعراقية. فأصدر قانوناً خاصاً بالبلديات ومهامها في عام 1877، والذي نظم بموجبه شروط العضوية فيها ومدتها وحق الانتخاب والترشيح لتلك المجالس. وكان لولاية بغداد ثلاث بلديات خلال عهد السلطان عبد الحميد،

<sup>38</sup> محمد جلال كشك، القومية والغزو الفكري، الكويت 1967، ص 210 - 211؛ و Commins, Islamic Reform, op. cit., pp. 116-118.

<sup>39</sup> Farah, NNNS, pp. 160-161.

<sup>40</sup> جريدة *تمرات الفنون*، عدد 240، تاريخ 1879/8/4؛ و Georgeon, op. cit., p 535.  
<sup>41</sup> تمركزت "الأفواج الحميدية" في منطقة أرضروم وأعلى الرافدين. حول هذا الموضوع، أنظر التقرير المفصل للمستشرق الألماني أوبنهايم في: PAAA, OG 9,1, Bd. 4, Nr. 104, A 10342, Oberkassel – Siegkries 28.7.1900.

<sup>42</sup> PAAA, OG 9,1 Bd. 3, "Verhältnis des Ordens der Senussi zum Türkischen Sultanate", Oppenheim an Hohenlohe – Schillingsfürst, Nr. 85, 10.4.1900.

<sup>43</sup> وردت أصول انتخاب المجالس في نظام الولايات لعام 1864. أما اختصاصاتها، فوردت في نظام إدارة الولايات العمومية عام 1871. أنظر: عبد العزيز محمد عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا 1864 – 1914، القاهرة، لات، ص 102 – 110.

<sup>44</sup> النجار، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد، مرجع سبق ذكره، ص 252.

ما لبثت أن توحدت بعد عزله.<sup>45</sup> ومن جهة أخرى، أعاد السلطان تنظيم المحاكم، وجعل التقاضي والمرافعات والأحكام باللغة العربية. وتم توسيع المحاكم المدنية وأدخل نظام الجندرية وفرض الأمن.<sup>46</sup>

وعلى الصعيدين الاجتماعي والديني، عمل السلطان على إجراء مصالحات بين العشائر المتنافسة، وعلى استقرارها في مستوطنات زراعية. فقام بجهود لتوطين البدو في بلدة بئر السبع الحالية وتشغيلهم بالزراعة. كذلك، نجح في توطين بدو جبل الصفا في قرية الضمير، والجرس في مدينة عمان الحالية، والعشائر البدوية في نواحي حمص وحماة وإلى حد ما في العراق.<sup>47</sup> كذلك لحظت اهتمامات عبد الحميد ترميم الكعبة والحرم وتحسينهما وإرسال الهبات والصدقات والأوقاف إليهما، وأسعاف الحجاج والعمل على عمارة الحرم القدسي في مدينة القدس، ومنع سفور النساء،<sup>48</sup> والزواج من دون موافقة الأهل،<sup>49</sup> وأمر باعتقال المفطرين في شهر رمضان المبارك.<sup>50</sup>

أما بالنسبة إلى التعليم، فقد تمتعت الولايات العربية بدرجات متفاوتة من التطور. فلحد من مساوئ التعليم الإرسالي، عرف السلطان كيف يُلطّف من معارضة العلماء لتحديث التعليم، وتوصل إلى إقامة نظام تربوي إرتكز على مؤسسات تعليمية عصرية أكثر من المؤسسات الدينية.<sup>51</sup> ولهذا شهدت بلاد الشام والعراق بشكل خاص خلال الثمانينات افتتاح العديد من المدارس الرسمية على كافة المستويات وبخاصة الابتدائية والرشدية في المدن الرئيسية. كما أنشئ بعض المدارس المهنية وأخرى تعنى بتخريج المعلمين والتحصير للمدارس العسكرية.<sup>52</sup> ويذكر كومنز، أنه في حدود عام 1890، شكل عدد التلاميذ الذين يدرسون في المدارس الرسمية في سوريا ضعف عدد التلاميذ في المدارس الدينية.<sup>53</sup> كما ازداد عدد البنات في المدارس بشكل ملحوظ، وكانت أول مدرسة رشدية للبنات تأسس في بغداد في حدود عام 1900. ويذكر النجار، أن عملية إنشاء المدارس الحكومية الحديثة في ولاية بغداد استمرت طوال سنوات حكم عبد الحميد الثاني.<sup>54</sup>

<sup>45</sup> النجار، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد، ص 257 – 263.

<sup>46</sup> حول سوريا، راجع: عبد الكريم غرايبة، سورية في القرن التاسع عشر 1840 – 1876، القاهرة 1962/1961، ص 64؛ ويوسف الحكيم، سورية والعهد العثماني ط2، بيروت 1980، 29، 37؛ حول العراق، النجار، ص 460-461؛ حول فلسطين، Ann Lesch, "The Gerber, Ottoman Rule, pp. 19, 20-25, 93-97, 143-144, 153-154, 158, origins of Palestine Arab Nationalism", in: William W. Haddad/William Ochsenwald (eds), Nationalism in a Non- National State. The Dissolution of the Ottoman Empire, Columbus 1977, p. 280

<sup>47</sup> الحكيم، سوريا، مرجع سبق ذكره، ص 69-71؛ محمد كرد علي، خطط الشام، ج6، دمشق 1928، ص 316؛ ثمرات الفنون، عدد 495،

تاريخ 1884/8/28؛ Gerber, Ottoman Rule, pp. 20-225, 27, 238ff. و Tibawi, op. cit., pp. 173ff.

<sup>48</sup> ثمرات الفنون، عدد 341، تاريخ 1881/7/25.

<sup>49</sup> عارف العارف، تاريخ القدس، القاهرة 1956، ص 120؛ و ثمرات الفنون، عدد 432، تاريخ 1883/6/30، وعدد 482، تاريخ 1884/8/25.

<sup>50</sup> ثمرات الفنون، عدد 392، تاريخ 1881/7/31.

<sup>51</sup> إيلبار أورطابلي، "بلاد الشام في القرن التاسع عشر"، في: المجلة التاريخية المغربية، 40/39 (1985)، ص 604؛ وقارن ب: النجار، ص 419 وما بعد.

<sup>52</sup> غرايبة، سورية في القرن التاسع عشر، مرجع سبق ذكره، ص 69؛ النجار، ص 419 – 420.

<sup>53</sup> Commins, Islamic Reform, p. 16.

<sup>54</sup> النجار، ص 419.

وفي عام 1883 صدرت مراسيم عثمانية بتشكيل مجالس للمعارف في بلاد الشام والعراق للإشراف على التعليم، وجرى منذ ذلك التاريخ تقييد نشاطات الإرساليات التعليمي في المدن وخارجها ومراقبة مناهجها وكتبها.<sup>55</sup> وبالمقابل، شجعت الدولة المسلمين على بناء مدارسهم الخاصة، كـ "جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية"، التي أسست عشر مدارس، اثنتان منها للبنات، بعد عام على تأسيسها في 1878.<sup>56</sup> كما استقبلت الدولة العثمانية في مدارسها الملكية والحربية أعداداً متزايدة من أبناء الأعيان العرب لمتابعة دراساتهم العليا والتدريب على الوظيفتين المدنية والعسكرية. وتم اختيار القليل منهم لدراسة الطب.<sup>57</sup> وكانت كلية للطب قد تأسست في دمشق عام 1903 بأمر من السلطان بهدف منع احتكار تعليم الطب من قبل كليتي الطب في الكلية السورية الإنجيلية وجامعة القديس يوسف في بيروت. وقد سبقها المستشفى العسكري في دمشق مطلع التسعينات، والمستشفى الحميدي التي تأسست في عام 1899، واعتبرت نواة كلية الطب.<sup>58</sup> كما افتتحت بغداد عام 1908 كلية للحقوق، كانت المدرسة العالية الوحيدة حتى نهاية العهد العثماني.<sup>59</sup>

وخلال عصر السلطان عبد الحميد جرى إنشاء أعداد قليلة من المدارس في الحجاز واليمن. لكن السكان ظلوا يعتمدون على المدارس التقليدية العثمانية.<sup>60</sup> ولأسباب سياسية، وهي تقريب البدو من السلطة، أسس عبد الحميد عام 1892 مدرستين لأبناء البدو العرب والأكراد، الأولى في الآستانة والثانية في بغداد. وكانت هناك حصة من التلاميذ لكل ولاية عربية باستثناء بيروت وجبل لبنان.<sup>61</sup>

## 5- تطوير مشاريع البنى التحتية

شهدت الولايات العربية على صعيد البنية التحتية تحسناً كبيراً نتيجة للمشاريع العديدة التي أمر بها السلطان عبد الحميد، كبناء المستشفيات ومراكز الحجر الصحي وشبكات البرق وتوسيع الخدمات البريدية وتنظيمها وإنارة المدن الرئيسية وتزويدها بالمياه وبناء الطرقات والجسور والسدود وتطوير المرفأئ ووضع تزامويات في الخدمة العامة وأنشأ السرايات والمنتزهات وتنشيط الزراعة والصناعة مرگزاً على مجالسهما. كما خصت الحكومة العثمانية المتمولين العرب في معظم المشاريع، وبخاصة المسلمين منهم، على قول السفير البريطاني في الآستانة.<sup>62</sup>

<sup>55</sup> F.O. 78/4172, Wyndham to Granville, no. 235, Constantinople 17.4.1883 وتتضمن الوثيقة مذكرة حول "التعصب الديني في تركيا"؛ عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين 1841 - 1901، بيروت 1987، ص 78-79.

<sup>56</sup> Commins, p. 15.

<sup>57</sup> Khoury, Notables, p. 29; Tibawi, Syria, p. 169.

<sup>58</sup> رافق، تاريخ الجامعة السورية، ص 9 - 11، 18.

<sup>59</sup> النجار، ص 420.

<sup>60</sup> أنظر: Jamal Alami, "Education in the Hijaz under Turkish and Sharifian Rule", in: **The Islamic Quarterly** (London), 19, ½(1975), p. 43.

<sup>61</sup> PAAA, OG 9,1, Nd. 3, Oppenheim an Hohenlohe – Schillingsfürst, "Die Beduinen und die Türkische Regierung", Nr. 73, A 10948, Damaskus 25.8.1898;

Nezan Kendal, "The Kurds under the Ottoman Empire", in: **People Without Country**, transl. by Michael Pallis, London 1980, p. 34.

<sup>62</sup> Kuran, op. cit., p. 33. وفارن ب: F.O. 424/213, O'Connor to Gray, no. 1342, Pera 25.11.1907;

بيد أن أهم مشروعات إنمائيين قام بهما السلطان عبد الحميد، كانا حَظَّ حديد بغداد وخط حديد الحجاز. وقد نالت سوريا والحجاز حصة الأسد من خطوط سكك الحديد، إذ حصلتا في الأونة ما بين 1882 و1908 على 43.7% (2350 كلم) من سكك حديد السلطنة، مقابل 37% (1850 كلم) للأناضول و15.7% (799 كلم) للروميلى.<sup>63</sup>

وعلى الرغم من أن خطوط المواصلات الحديدية ومعظم المشروعات التي قام بها السلطان، من طرق وبارق وبريد كانت تخدم في نهاية الأمر مركزاً سلطته المطلقة، إلا أن هذه المشروعات لم تكن من دون فائدة على الصعيد الاستراتيجي، وأيضاً الاقتصاد الزراعي بالنسبة للمناطق التي لمستها.<sup>64</sup> فخط حديد بغداد كان امتداداً لخطوط الأناضول التي ربطت أوروبا بتركيا الآسيوية وكان مقراً لها أن تصل إلى الخليج لترتبط أوروبا بالمحيط الهندي.<sup>65</sup> كان هذا الخط سيربط المناطق الداخلية لبلاد ما بين النهرين وأعلى سوريا، ويزيد إنتاج المحاصيل الزراعية في ولايات البصرة وبغداد والموصل بنسبة 40% خلال السنوات العشرين بعد إنشائه.<sup>66</sup> ومن فوائده أيضاً، التقليل من خطر القبائل العربية في الجزيرة العربية وشمال سوريا وإرغامها على الاستيطان بصورة تلقائية.<sup>67</sup> وقد كان الألمان يفكرون في توطيد الأكراد (الأفواج الحميدية) واللاجئين الجركس والبلغار، واللاجئين البوسنيين بعد عام 1908 في بلاد ما بين النهرين وأعلى سوريا في المناطق الاستراتيجية لخط حديد بغداد، وذلك لتعزيز أهميته الاقتصادية بقيام الاستيطان الزراعي على امتداده. إلا أن الباب العالي، ولأسباب سياسية، لم يكن مهتماً بتوطيد هؤلاء في المناطق ذات الكثافة السكانية الإسلامية، وإنما في منطقة شرق الأناضول حيث الكثافة السكانية المسيحية.<sup>68</sup>

ويُعدّ خط حديد الحجاز (دمشق - مكة) الذي لم يصل إلى أبعد من المدينة المنورة (1300 كلم)، أهم عمل قام به السلطان عبد الحميد قبل خلعه عن العرش. فتمويله إسلامياً، أثبت تضامن مسلمي العالم حول فكرة الجامعة الإسلامية، وبنائه من قبل المهندسين العثمانيين، على الرغم من الاستشارة الألمانية، عزز ثقة العثمانيين بأنفسهم،<sup>69</sup> وأكسب عبد الحميد سمعة عالية في العالم الإسلامي بوصفه خليفة المسلمين. فكتبت السفارة الألمانية في الأستانة إلى رئيس الوزراء الألماني تقول: "إن وسيلة أخرى (غير خط الحجاز)، لم يكن بإمكانها أن ترفع من سمعة السلطنة العثمانية التي لحقت بها خسائر في الممتلكات والمعنويات خلال أكثر من خمس وعشرين سنة من حكم عبد

Akarli, Abdulhamid's Islamic Policy, p. 51; Georgeon, op. cit., p. 535.

63

64 أنظر: لامنس اليسوعي، "منافع السكة البغدادية"، في: المشرق (القاهرة)، عدد 6/5 (1902)، ص 311-317؛ و PAAA, Og 9, 1, Bd. 4, Oppenheim an Hohenlohe – Schillingsfürst, Nr. 92, A 7112, Cairo 30.5.1900, 1. Anlage.

65 سئو، ألمانيا وسياسة الاندفاع نحو الشرق، مرجع سبق ذكره، ص 256 – 259.

66 <Hamburger Börsen Halle>, no. 234, 20.5.1903.

67 PAAA, OG 9,1, Bd. 9, Oppenheim an Bülow Nr. 328, A 3312, Cairo 16.2.1906; Bd. 5, < Die Türkei und Arabiens>, Oppenheim an Bülow, Nr. 133, A 13810, Oberkassel (Siegkreis) 26.9.1901.

68 PAAA, OG 9,1, Bd.4, Marschall an Hohenlohe4 – Schillingsfürst, Nr. 133, A 14304, Therapia 29.9.1900; Bd. 11, Oppenheim an Bülow, Nr. 415, A4845, Cairo 9.3.1909.

69 PAAA, Türkei 152, Bd.43, <Bericht über die zweite Teil – strecke Ma'an – El-'ula der Hedschasbahn, Auler an Kiderlin – Seachter, A 19174, Konstantinople 10.10.1907.

الحميد وأن تنشّط من الصفة المزدوجة للسلطان - الخليفة من خلال أخذ المبادرة في منطقة تهمة الإسلام".<sup>70</sup>

وعلى الصعيدين الديني والاجتماعي والاقتصادي، كان من المتوقع أن يُسهّل الخط وصول الحجاج إلى مكة المكرمة وأن يخدم في الوقت نفسه النمو الاقتصادي لحوار بتصدير إنتاجها الزراعي.<sup>71</sup> لكن الاعتبارات السياسية - الاستراتيجية فاقت كل ما قيل حول أسباب إنشائه. فخط حديد الحجاز كان يدخل ضمن الصراع العثماني - البريطاني على الجزيرة العربية وبخاصة الحجاز وأماكنه المقدسة، وكان سيمكّن السلطان العثماني من إضعاف البدو وضبطهم،<sup>72</sup> والتدخل ضد أية محاولة لإنشاء خلافة عربية،<sup>73</sup> أو مصرية لضم البحر الأحمر والحجاز،<sup>74</sup> أو حركة استقلالية في اليمن،<sup>75</sup> حيث يُبقي المواصلات البرية للقوات العثمانية مع الجزيرة العربية مفتوحة ولا يجعلها تحت رحمة الأسطول البريطاني.<sup>76</sup> ويذكر تقرير بريطاني أن السلطان عبد الحميد كان مستعداً لأن يخسر كل السلطنة مقابل الاحتفاظ بالأماكن المقدسة في الحجاز.<sup>77</sup> وعندما حقق الخط تقدماً ملحوظاً في إنشائه وبدأ الحديث بجديّة مطلع عام 1906 عن إمكانية ربطه بخط فرعي إلى العقبة ومن ثم إلى السويس، أدركت بريطانيا أن الخط المذكور سيقيّو السلطنة وفكرة الخلافة والجامعة الإسلامية ويُضعف من مركزها في مصر، حيث كانت مشاعر المصريين متعاطفة إسلامياً مع الدولة العثمانية، فافتعلت حادثة العقبة التي كانت خلفياتها واضحة وهي ألا يُصبح للعثمانيين من خلال الخط أي موطئ قدم على قناة السويس.<sup>78</sup>

## 6- فلسطين في سياسة عبد الحميد الإسلامية

من المعروف، أن السلطان عبد الحميد الثاني وقف ضد مشروع تهويد فلسطين، وبخاصة ضد مساعي هرتزل، زعيم المنظمة الصهيونية، لشراء الأراضي في فلسطين لقاء تسديد دون السلطنة لدى المصارف الأوروبية.<sup>79</sup> ويعود السبب في ذلك إلى مرتبة القدس الإسلامية وتقرب

<sup>70</sup> PAAA, Türkei 152, Bd. 24, Deutsche Botschaft in Istanbul an Bülow, Nr. 141, Therapia 21.8.1904.

<sup>71</sup> Hans Kohn, Die Europäisierung der Türkei, pp. 156-157.

<sup>72</sup> PAAA, Türkei 152, Bd.43, <Bericht über die zweite Teil - strecke Ma'an - El-'ula der Hedschasbahn, Auler an Kiderlin - Seachter, A 19174, Konstantinople 10.10.1907.

<sup>73</sup> Gergeon, pp. 535-536; PAAA, OG 9,1, Bd. 8, Oppenheim an Bülow, Nr. 273, A 8954, Cairo 9.5.1906.

<sup>74</sup> F.O. 424/213, Lascelles to Grey, no. 358, Berlin 14.8.1907.

<sup>75</sup> Martin Hartmann, "Die Mekkabahn, ihre Aussichten und ihre Bedeutung für den Islam", in *Asien*, 10 (1912), p. 148; Kohn, E uropäisierung der Türkei, pp. 156-157.

<sup>76</sup> Hartmann, op. cit., p. 148; PAAA, OG 9, 1, Bd. 8, Oppenheim an Bülow, Nr. 273, A 8954, Cairo 9.5.1906.

<sup>77</sup> F.O. 424/203, Richards to O'Conor, no. 98, Damascus 19.11.1902.

<sup>78</sup> PAAA, OG 9,1, Bd. 11, Oppenheim an Bülow, Nr. 440, A 8263, Cairo 1.5.1909; Bd. 8, Oppenheim an Bülow, Nr. 274, A 8955, Cairo 9.5.1906.

<sup>79</sup> عبد الرؤوف سنو، "ألمانيا وسياسة <الاندفاع نحو الشرق>. العلاقات الألمانية العثمانية من 1871 - 1918"، في: *دراسات إسلامية* (لبنان)، 3(1990/1989)، ص 281.

السلطان إلى العرب، وعدم رغبته في إضافة قومية جديدة إلى المجتمع العثماني، والخشية من أن يؤدي الاستيطان إلى قيام دولة يهودية في فلسطين. من هنا، وقف عبد الحميد ضد الهجرة اليهودية إلى فلسطين ومنع بيع الأراضي إلى اليهود في الأعوام 1891 و1892 و1900 و1905.<sup>80</sup> لكن تطبيق القوانين العثمانية كان يعتمد من ناحية على مدى ما تمارسه الدول الكبرى من ضغوطات على الباب العالي لصالح اليهود، ومن ناحية أخرى على الحكام المحليين والموظفين الذين كان بالإمكان رشوتهم. فكان بمقدور اليهود الوصول إلى فلسطين كحجاج وبأساليب أخرى وتمديد إقامتهم. ويرى الشناوي أنه كان لعبد الحميد "زلة" في سياسته الفلسطينية، وهي منح بعض اليهود "فرمانات" مكنتهم من شراء بعض الأراضي وبناء مستوطنات عليها. لكنه يعود ويستدرك بأن عدم تجاوز عدد اليهود في فلسطين 10% من سكان البلاد آنذاك، يعود إلى سياسة عبد الحميد بالذات.<sup>81</sup>

وفي أيلول ، أرسل عبد الحميد من منفاه في سالونيك إلى مريده الشيخ محمود أبو الشامات يقول إنه رفض إغراءات الاتحاديين عندما كان في الحكم لأجل إنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين، وإنهم خلعوه بعدما أجابهم: "لقد خدمت الأمة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة، فلن أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين".<sup>82</sup>

<sup>80</sup> حول هذا الموضوع، راجع: Lesch, op. cit., pp. 270, 283; Neville J. Mandel, "Ottoman Policy and Restrictions on Jewish Settlement in Palestine 1881-1908", part I, in: *MES* 3, 10(1974), pp. 312-332.

<sup>81</sup> عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج2، القاهرة 1980، ص 999 - 1000.  
<sup>82</sup> نقلا عن: Josef van Ess, "Libanesische Miszellen, die Yasrutiya", in: *Die Welt des Islams*, 16 (1975), pp. 95,98-99.